دراسة موضوعية لبعض القيم الاجتماعية

في الأمثال الشائعة باليمن

د. عبدالجبار مسعد التام*

المقدمة

إن دراسة الأمثال عنصر مهم في الدراسات الأدبية والدراسات الإنسانية؛ فالأمثال تعد، بصفة عامة، جزءاً من حياة الأمم والشعوب. وقد جاءت الأمثال الشعبية في عصور الشفاهية ممثلة لصوت المجتمع، تعكس أحواله وتفكيره وثقافته.وقد كان لها شأن عظيم في الدراسات التي تتناول أحوال المجتمعات وثقافتها، كما أن لها شأنا في الدراسات الاجتماعية والتاريخية واللغوية.

والاهتمام اليوم بالدرس اللغوي، يسهم في تقدم البحث في مختلف مجالات العلوم الإنسانية؛ فكل تقدم في تخصص معين يؤثر بشكل أو بآخر على البحث في مجال الأمثال. فالمثل يعتبر "عنصر تقاطع الدراسة التي تتعهد التخصصات الرئيسية للعلوم الإنسانية"(1). وهو يشكل نقطة التقاء اللغة بالثقافة، ويعكس لنا الممارسات الخطابية والقيم الثقافية. كما انه موضع اهتمام العديد من المقالات والبحوث والدراسات التي تهدف إلى طرحه ك "وحدة لغوية ". فهو خلاصة تجارب الشعوب، تم صياغتها في جمل صغيرة ذات معاني متعددة. وهكذا تمثل الأمثال الفلسفة الشعبية في الحياة واتصال العنصر البشري بمختلف نواحي الحياة ومكوناتها. فما هي قيمة الأمثال الشعبية؟ وما هي وظائفها؟ وهل هناك تراجع في الأمثال وحركتها؟ وهل

* أستاذ مساعد كلية الآداب –جامعة ذمار.

هناك محو لمضمونها من خلال الابتعاد عن ذكرها، ومن خلال تفشي قيم مغايرة يمكن لها أن تؤدي إلى تشويه للمثل، وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على بعض القضايا التي يتناولها أصحاب البيئة التي قيلت فيها الأمثال وذاعت.

المثل: خصائصه وأغراضه

المثل عبارة عن جملة مفيدة موجزة ومحكمة البناء وبليغة العبارة وشائعة الاستعمال عند الطبقات كافة، فهو يلخّص قصة وخبرة غابرة، وقد حظي عند الناس بثقة تامة؛ لأنه يسهم في حلِّ مشكلة قائمة بخبرة مكتسبة من مشكلة قديمة انتهت إلى عبرة لا تُنسى، وقيلت هذه العبرة في جملة موجزة، وارتضاها العامة والخاصة في لفظها ومعناها.

ولقد وجد المثل سبيله إلى البلاغة العربية فيما عرف باسم التشبيه التمثيلي، (عند الميداني، والنظام، وابن المقفع، وابن السكيت)، إذ يوحي بإجراء تشبيه بين حالتين: الحالة الراهنة التي يستعير فيها القول المتمثل به، والحالة التي صدر عنها ذلك القول. وقد مرّ قبل اعتماده وشيوعه في غربال معايير المجتمع، ونمّ، صراحةً أو ضمناً، عن هذه المعايير على كل صعيد وفي كل حال يتعاقب عليها الإنسان في حياته.

إن المثل بفصيحه ودارجه وبتعبيراته فنٌّ من الفنون الشعبية التي تندرج تحت لواء التراث، وهو بوصفه علماً من العلوم الإنسانية، بالغ التأثير في الحضارة والثقافة العامة. ومن المعروف أن لكل شعب من الشعوب ولكل أمة من الأمم أمثالها الخاصة التي تعبر عن نمط الحياة الفكرية والروحية والاجتماعية والاقتصادية، التي كان ومازال يحياها ذلك الشعب وتلك الأمة.

لقد خضعت المأثورات الشعبية، ومنها المثل الذي توارثه الخلف من السلف شفاهة، وعبر رحلته الطويلة اندثر منه ما اندثر وطوى النسيان ما طوى، شأنه شأن سائر المأثورات الشعبية، للدراسة العلمية في القرن التاسع عشر، واستحوذ المثل على اهتمام بعض علماء اللغة والتاريخ والاجتماع في الشرق والغرب وذلك؛ لأن دراسته استقصاء وتحليلا ومقارنة، تهدي الباحث إلى وضع صورة صادقة للمجتمع والتعرف

على أفكاره وتقاليده، فهو يشكل المرآة التي تتجلى من خلالها الحياة اليومية ويُعد حصيلة للتجارب الواقعية التي عاشها المجتمع وصاغها مثالا وأرسلها حكمة وتعليما.

يعد المثل من أكثر أنواع التراث الشعبي انتشاراً وتداولاً، فاستعماله لا يتطلب أي مواصفات أو مهارات معينة من قبل المستعمل، ولا توجد أي ظروف نفسية ومناسبات اجتماعية تمنع من استعماله، كما ساعدت كثرة انتشار المثل، وتداوله على سهولة الحصول على عينات كثيرة منه؛ مما أدى إلى تنوع الدراسات الفلكلورية التي تهتم بالمثل، ويرجع سبب انتشار المثل وتداوله بين طبقات المجتمع وأفراده بشكل يفوق غيره من الألوان الأدبية إلى خصائص المثل نفسه، ففكرته واقعية ولفظه موجز وتركيبه بسيط ومعبر ونطقه سهل؛ مما يجعله عالقاً في الأذهان منساباً على كل لسان.

إن ثقافات الأفراد والجماعات تختلف باختلاف مرجعياتهم الفكرية، وكذا باختلاف مواقعهم الجغرافية والبيئية، وتعد التجربة الإنسانية أساس العديد من الإبداعات والإنتاجات الثقافية المختلفة ذات الصلة بالطبيعة الإنسانية الحيوية والمتجددة، فكل عمل إبداعي يعبر عن هوية منتجة، واهتمامنا بدراسة المثل الشعبي بصفته أحد الأجزاء الرئيسية في بناء الإبداع الشفهي، يأتي من كونه يمكننا من إدراك أفكار المجتمع وتصوراته وآرائه ومعتقداته ودرجة ارتقائه أو تخلفه.

لقد شهدت الثقافة العربية اهتماماً كبيراً بالمثل، إذ عملت شريحة من المثقفين في المشرق والمغرب ومن الولوعين بالثقافة الشعبية على جمع أعداد هائلة من الأمثال المتداولة التي تعبر عن الغنى والتنوع الثقافي لأنماط الحياة المختلفة. وقد اختلف الباحثون لاسيما اليمنيين في طريقة تدوين الأمثال، فمنهم من اتبع التسلسل الهجائي مثل إسماعيل الأكوع (الأمثال اليمنية) 2004، ومنهم من قسمها حسب الموضوعات مثل عبدالله البردوني (فنون الأدب الشعبي في اليمن) 1995، والبعض الآخر اكتفى بالتصنيف حسب المكان.

وظيفة المثل

المثل، بصفته عصارة لتجارب الحياة الإنسانية تجاه مواقف معينة، يسهم في تهذيب الأجيال، وتقويم الأخلاق، وتأديب الأشخاص، واستعماله في معظم الأحيان يتم في ظروف خاصة ولهدف معين من شأنه

تخفيف الألم في حالة التشاؤم والفشل أو التوجيه والتنبه إلى الصواب، وقد يفعل المثل في النفس ما تعجز عنه المحاضرات. كما أنه يلعب عدة وظائف من أبرزها:

- الوظيفة الأخلاقية: تعتبر عبارة المثل بمثابة نصيحة وقاعدة سلوكية، تتجلى فيها خبرة القدماء. ولهذه العبارة وظيفة في علم الأخلاق وتهذيب المجتمع، كما أنها تعبر بصفة عامة عن سلوك إنساني. فهي تذم في كل مجتمع وتنوه بالأساليب نفسها، فغالباً ما نجده يرشدنا إلى التشبث بالقيم الأخلاقية الإيجابية كالصدق والكرم والصبر والقناعة والابتعاد عن القيم السلبية كالطمع والحسد والنفاق والأنانية والبخل، ومن بين الأمثال الشعبية التي تعبر عن ذلك نجد مثلا "قليل دائم ولا كثير منقطع" "ما بعد الشدة إلا الرخا" "بشر البخيل بحادث أو بوريث".
- الوظيفة الدينية: نجد العديد من الأمثال الشعبية التي لها أثرً ديني في حياتنا اليومية، فغالباً ما نجد بعضها يدعو إلى احترام مبادئ الدين، ويوصي بالصبر والرضا وقضاء دّين الميت، ومن بين تلك الأمثال المعبرة عن ذلك: "الصبر مفتاح الفرج" "الدّين قبل الوراثة".
- الوظيفة العلمية: من الأمثال ما يرشد ويلقن معرفة عملية مستوحاة من تجربة القدماء، ولاسيما في مجال الفلاحة لما يزخر به من معلومات ونصائح علمية حول الفصول والطقس والتغيرات الجوية ومواقيت الزراعة والحصاد " أيام الزراعة معدودة وأيام الحصاد ممدودة".
- الوظيفة التعليمية: مما لا شك فيه أن الطابع التعليمي التهذيبي، يظهر واضحاً في الأمثال أكثر من ظهوره في أي نوع آخر من الآداب الشعبية، والمثل في إطاره التعليمي يوجه السلوك بأسلوب مباشر أحياناً كما يوجهه بأسلوب غير مباشر أحياناً أخرى، وذلك بتقديم نماذج بشرية شاذة أو إبراز سلوك اجتماعي قبيح، وهو في هذه الحالة يريد أن ينفرنا من هذه النماذج، أو هذا السلوك، وكأنه يريد أن يقول: لا تفعلوا هذا السلوك، أو لا تكون مثل هذه النماذج الشاذة السيئة. ومن هذه الأمثال "من زرع الحيلة حصد الفقر"، وتتم هذه الوظيفة وغيرها من خلال تلقين التراث الشفهي الذي يعود بفوائد متعددة، وذلك من الجانب المعرفي واللغوي والثقافي والتربوي، ومن الممكن،

على مستوى المضمون والتربية، بلورة القيم البشرية كالإحسان والكرم والصبر، وتلقين قواعد سلوكية ونصائح تعامليه، والتوعية بمكونات الثقافة في المجتمع "من صبر نال ومن نال فاز" "ربي ابنك وهو صغير، تلاقيه وهو كبير"، أما على مستوى اللغة يمكن للأمثال المساعدة في إثراء معجم المتعلم.

القيم الاجتماعية

للأمثال أثرٌ كبير في حياة أي مجتمع، ففي المجتمع اليمني تسهم في معالجة القضايا المختلفة، ولاسيما في المناطق القبلية، إذ الفرد أكثر ارتباطاً بأسرته، ولا يستطيع التحرك "إلا وفق قانون القبيلة، وفي حدود عرفها وتقاليدها"[2]. وهي توضح علاقة الفرد بمجتمعه، وتنظم سلوكه، حتى أصبحت تمتلك أحيانا قوة القانون وتأثيره.

وتختلف الأمثال من منطقة إلى أخرى، فأمثال المدن تمتاز بالاستعارة والتورية، من حيث الأسلوب وبتعدد نواحي استعمالها من حيث المعنى بتعدد المهن، وتتميز أيضا بوجود بعض المفردات الدخيلة كالحبشية أو التركية المقترنة بشؤون الحياة العامة ولاسيما في مجال الإدارة. في حين تمتاز أمثال القبيلة بجزالة الألفاظ، ووضوح أغراضها كالحرية والشجاعة والقتال والوفاء والشر والغدر والصبر والعمل والزراعة.

إذ تعد الأمثال رصيداً عاماً وملكاً مشتركاً لجميع أفراد المجتمع وفئاته، ولا تنحصر صياغتها، أو استخدامها على النخبة، أو المتعلمين، أو المثقفين، بل هي ملك للجميع ومستعملة من قبل أفراد المجتمع سواء كان الفرد منهم ذكراً أم أنثى أو كان حكيماً أم جاهلاً أم متعلماً أم مهندساً أم مزارعاً، وغالبا ما يكثر استعمالها من قبل أفراد أُميين. كما أن معظم الأمم يعبر عن الشعور نفسه بواسطة أمثالها؛ ومن الملاحظ أن هناك علاقة وطيدة بين الأمثال في دول مختلفة، رغم تباينها، وذلك من حيث المضمون، أو حتى من حيث الشكل أحياناً.

إن علاقة الحكمة بالسلوك جعلتنا نصنف الأمثال تصنيفاً سلوكياً، وهي التي تجعل المثل معبراً عن روح المجتمع ومعتقداته ومعاييره وسلوكه، فهو يعبر عن معنى عميق من خلال بساطة الصور ومقاربته للحياة

اليومية، ومعرفة المثل تعكس المستوى اللغوي والخبرة للفرد؛ فكل فرد يكتسب عديد من الأمثال وفي الوقت نفسه زيادة تجاربه في الحياة، وعلى الرغم من أن الأمثال تتميز دائما بأشكالها البسيطة، لكنها تشكل انعكاسا لمجموعة متنوعة من الأحكام والمواقف. فهي مجرد تعبيرات عامة يجب معرفة اللحظة المواتية لاستعمالها.

والمثل لا يقال دون سبب، ولا يمكن استعماله عشوائياً، أي بعيداً عن سياقه في الكلام، فهو يأتي من تلقاء نفسه، دون صعوبة وتقريبا دون أن يلاحظ، في حالة معينة، ومن الصعب، حتى بالنسبة إلى المتحدث المحلي، توضيح الأمثال خارج السياق. ويشير بعض الحالات إلى أن استعمال المثل يمكن أن يحتوي على عديد من المواقف والمعاني، فعبارة المثل محايدة، ولكنها تأخذ معناها داخل الخطاب حسب نية المتحدث، ويمكن استعمال العبارة نفسها في ظروف مختلفة تماماً، فنحن نبحث أحياناً عن قول شيء ما عن موقف معين، ونقوم بفعل ذلك بواسطة عبارة ليس لها علاقة واضحة مع هذا الموقف، ويرتبط المثل بمواقف معينة ويُعرف من خلال استعماله، والغرض منه إحاطة الحقائق الملموسة وتوضيحها، وللمثل استعمال محدد: فهناك سياق ورسالة تُرسل ودرس يُفهم.

وتهدف الأمثال، بصفة عامة، إلى الحفاظ على النظام الاجتماعي، فكل له مكانه في المجتمع ويؤدي الدور المنوط به. ومن ثم سيعيش في تناغم مع الآخرين ويستحق تقديرهم واحترامهم. وبالمقابل فالمجتمع ليس كلية ثابتة؛ بل هو منظومة متحركة عرضة للتغيير وتمتلك آليات تضمن للأفراد وللجماعات بعض الحركة الاجتماعية.

تتجلى قيمة الأمثال في فلسفة العادات والأعراف، فمن الممكن أن نتعلم من الكتب والمدارس مئات من القضايا المعقدة، في حين الأمثال الشعبية تعلمنا الحياة مباشرة، وتستطيع تلخيص مراحل من الفلسفة في عبارة مستوحاة من تجربة، فهي "*تترجم تصور الفاعل الاجتماعي للموقف، وتساعد على توضيحه، فمن خلال الحدث الاجتماعي يتم استحضار بعض الأمثال فجأة من خانة النسيان إلى الذاكرة*"[3].

لذلك يمكننا، بشكل أو بآخر، محاولة فهم الحياة من خلال عديد من الرسائل التي تتضمنها الأمثال التي تناقش جميع الموضوعات المتعلقة بالحياة: العلاقات الإنسانية، والعلاقات الاجتماعية، والعلاقات

الاقتصادية والسياسية والدين والطب... الخ، وسنحاول في هذا البحث مناقشة بعض الموضوعات في الأمثال الشائعة باليمن.

1. القدر

عبارة عن سلسلة من الأحداث، التي تؤثر على الفرد، في حياته الشخصية، أو ألاجتماعية، إذ إن نشأة هذه الأحداث وأسبابها خارجة عن سيطرة العقل، وعن سيطرة الإرادة. فالقدر الصفة مفهوماً متناقضاً، يمكن أن يحمل دلالات إيجابية أو سلبية اعتمادا على سياقات مختلفة، ولكنه في معظم الأحيان ذو دلالات سلبية، ولاسيما في الممات وسوء الحظ.

يجمع القدر بين عدة مصطلحات مثل، المصير والحظ والمجهول، الخ. فهو ليس قيمة اجتماعية فقط، ولكنه يتضمن قيماً أساساً في التقليد الشفوي اليمني: الحياة والصحة والسعادة والخصوبة، والنجاح. ويمكننا الاستشهاد بأمثلة منها: " الزوجة مرجام الغيب"، "بنت الشرق للغرب وبنت الغرب للشرق".

إن هذه الأمثال وغيرها تفسر سمة من سمات القدر، وهي عدم القدرة على التنبؤ، فالقدر يتحاشى التوقعات الإنسانية، ولا يدخل في نطاق المعرفة البشرية، وإذا كان الإنسان يستطيع أن يعرف مسبقاً المصير المخصص له، فإنه على الأقل سيحاول عمل شيء ما للسيطرة على هذا المصير الذي يتعذر تغييره في دلالاته السلبية كما هو الحال بالنسبة إلى سوء الحظ، فهو أمر لا مفر منه وعلى الفرد أن يخضع لقدره؛ "لا نزل القدر عمي البصر" و "المكتوب ما منه هروب".

2. دورة الحياة

الإنسان هو محور كل القيم المعبر عنها في الأمثال وأساس محتواها، وعادة ما يكون مصطلح "دورة الحياة" في الدراسات الأنثروبولوجية مخصصاً لمراحل الحياة المتميزة ب "طقوس العبور"، مثل الولادة، والتلقين والزواج والوفاة، وسنحاول توسيع معنى هذا المصطلح للدلالة على مختلف الأعمار، وهذا التوسع

سيوضح أن للأمثال وظيفة أساساً، تكمن في تنظيم العمل الإنساني، ليس فقط في اللحظات الحرجة من الحياة، ولكن في أكثر الروتين اليومي، فلكل مرحلة عمرية سلوكها وقيمها الخاصة بها.

تعد الأمثال إحدى الوسائل الشفهية التي تساعد على النقل الثقافي، فالناس يميلون إلى نقل الثقافة التي تلقوها هم أنفسهم عن أسلافهم إلى أبنائهم، وكما أنهم يخضعون لتأثير البيئة وتحولاتها، فهم يؤثرون على أولادهم خلال سنواتهم الأولى، فعملية التكيف مع المجتمع تبدأ منذ الولادة.

إن كل شيء يعتمد على التعليم والخبرة؛ "التعليم في الصغر كالنقش في الحجر"، فليست الولادة النبيلة هي التي تضمن السعادة ولا اسماً كبيراً للعائلة يمنع من أن يكون الفرد غير سعيد. حتى الحكم على الفرد في حالة الجهل بأصوله يمكن أن يكون من خلال أفعاله "إذا غرتك الأصول دلتك الأفاعيل". فكل شخص يمكن الحكم عليه من خلال أفعاله التي تظهر أصله ونشأته. "إسأل عن الأصول قبل الوصول"، "إسأل عن الأم قبلما تلم"، وهذه الأمثال تدعونا إلى السؤال عن عائلة الفتاة وخاصة الأم؛ لأنه في نهاية الأمر الفتاة هي نسخة من والدتها "اقلب الجرة على فمها تطلع البنت مثل أمها".

الطفولة: هي المرحلة الأولى من العمر، وهي التي ترسم ملامح شخصية الفرد. ولهذا السبب يجب تكريس كل الاهتمام لتعليم الطفل، مع العلم أن التعليم الأولي يساعد في تحديد وضع الفرد في المجتمع؛ ف "من شب على شيء شاب عليه" والعادة، تعد طبيعة ثانية وصعبة التغيير، وتكون متأصلة، وكل ما تتركه الطفولة للشخص يلقاه في الشيخوخة.

مع ذلك، يجب الأخذ في الحسبان في هذه المرحلة بمبدأ الوسطية في التعامل معه، فيجب الابتهاج تارة والعتاب تارة أخرى والقسوة واللين لأن "عيب الولد من أهله". إن عدداً من الأمثال، ومنها " كثرة الضرب تدي البلادة" و "ربي ابنك وهو صغير تلاقيه وهو كبير" هي بمثابة نصائح للتعامل الحسن مع الأطفال من أجل الحصول في وقت لاحق على نتائج جيدة، فمن الممكن السماح لهم ببعض الطيش الذي لا يمكن غفرانه للبالغين؛ لأنه عندما تظهر اللحية تختفي الطفولة، والآباء يوجهون أطفالهم عندما يكونون

صغاراً وستتم معاقبتهم إذا عصوا، ولكن عندما يصبحون كباراً فإنهم يخرجون بسهولة أكبر من السيطرة الأبوية، ويكون الآباء أقل سلطة عليهم.

الصبا: المرحلة العمرية غير الواضحة، التي تكون بين الطفولة والنضج، توضح بشكل قوي شخصية الفرد، ففي هذه المرحلة يبقى الصبي مرحاً وطائشاً، وأكثر جرأة من الطفل، وهو عاطفي وغالباً ما يوضع تحت المراقبة؛ لأن المستقبل يبدأ من هذه المرحلة؛ " لا كبر ابنك خاويته".

البلوغ: المرحلة العمرية التي يكون فيها الشخص ناضجاً وجدياً، إن الخبرة والحكمة تأتيان مع التقدم في السن، وليس القوة ولا الشجاعة، ومع ذلك، لا الخبرة ولا الحكمة تكون بعدد السنين، لأن الحياة ستنتج شباباً ناضجين وأصحاب حكمة من دون انتظار التقدم في السن.

الشيخوخة، معها يوجد العجز والبؤس "التلم العوج من الثور الكبير"، "كبر السبع وشاب وسار مسخره للكلاب". أنه في كثير من الأحيان يتم تجاهل العجوز، ومع ذلك فطول العمر هو مصدر الحكمة والخبرة، ومن يعش طويلا يرى كثيرا؛ "لا تغزي إلا بقوم قد غزت وإلا بشيبه قد أعياه الزمان"، وكل شخص مدعو للشيخوخة ولعيوبها.

هذا هو قانون الطبيعة الذي لا يمكننا عمل شيء تجاهه، ولكل مرحلة عمرية خصائصها وقيمها: فللطفولة المرح والسذاجة، وللمراهقة القوة والحماس، وللبلوغ الخبرة والجدية، وللشيخوخة الضعف والحكمة.

3. القرابة

تقوم على مبدأ النسب المؤسس على البيت، الذي يتكون من جميع أولئك الذين يمكن تحديد نسبهم الفعلي إلى سلف مشترك، ويترأس سيد البيت النشاطات الجماعية للمجموعة، ويدير النزاعات بين الأعضاء ويفرض عقوبات على أولئك الذين يرتكبون أخطاء في المبادئ الأخلاقية للمجموعة.

إن القرابة لا تتقيد بالعائلة الصغيرة، فالزواج هو اتحاد بين رجل وامرأة، بحيث يتم الاعتراف بالأطفال الذين يولدون من هذا الاتحاد، من قبل المجتمع، بصفته نسلاً مشروعاً لكلا الشريكين. ومن أجل بناء أسرة

جيدة، تحث الأمثال على البحث عن الشريك الأفضل "خذ بنات الأصول واترك المحصول"، "خذ الأصيلة ولو كانت على الحصيرة". فمن يختار المرأة لمالها لا يفوز "يا أخذ القرد على ماله بيروح المال ويبقى القرد على حاله ". حتى من الجانب الجسدي "لا تأخذ العورا ولا بنت بنتها بيجو عيالهن عور ". فالمرأة في المجتمع اليمني هي البيت "البيت المرة والحبة الذرة" وهذا البيت هو الدور الذي تقوم به المرأة داخل الأسرة من تربية الأولاد والطهي وما إلى ذلك. كما أنه من الممكن قول الشيء نفسه عن الفتاة، وحث الأب على اختيار الشريك الأفضل لها " اخطب لبنتك ولا تخطب لابنك ".

تتكون الأسرة من الأب والأم وأطفالهم، ويمكن التمييز بين نوعين من العلاقات: العلاقة بين الأزواج والعلاقة بين الآباء وأبنائهم، فالزوج غالباً ما يكون متقلباً ولا مبالياً، وقد ينفصل عن زوجته إذا لم يقتنع بها، وإذا لم تعطه أولاداً ولاسيما ذكوراً. وعلى الزوج في الثقافة اليمنية أن يكون السيد في البيت، فلا يمكن أن يخضع لسيطرة زوجته، لأنه "من عمل بمشورة مراته ندم"، ومن الشائع أن "النساء ناقصات عقل ودين وميراث".

تشكل المرأة في الثقافة الشعبية، ولاسيما في الأمثال موضع تناقض بشكل عام، فهناك انتقادات لبعض أوجه القصور فيها وهناك تمجيد لبعض صفاتها. فالمرأة بطبيعتها فضولية وناكرة للجميل ومتقلبة وماكرة "كيد النسا غلب كيد الشيطان" و "إذا صاحت المره غرت على الرجال"، ويجب أن تكون المرأة متواضعة وخاضعة لزوجها، "ثلاث يشتين ثلاث؛ الدار الوسيعة تكون منيعة، والمرة البديعة تكون خضوعه، والفرس السريعة تكون مطيعة"، لأن المرأة الغنجاء والغبية واللامبالية والمشاكسة تقود منزلها إلى الخراب والبؤس.

يتزوج الفرد من اجل إنجاب أطفال عدة، فهم سيسهمون في وقت مبكر في سوق العمل الأسري. والجميع يحب الأطفال لأنفسهم وكونهم أيضا وسيلة، لتحقيق بعض الأهداف الاجتماعية مثل الثروة، "يا مالاه قال يا رجالاه"، والسلطة والهيبة والأمن. وتمجد الأمثال حب الآباء لأبنائهم، فالأب يريد ابنه أن يكون أفضل منه، ولكل دوره الخاص به في المنزل، فالأب يدير الأسرة في حين أن الأم توفر المودة للأطفال،

والابن خاصة الأكبر سناً والبالغ يحمي أهله، ويحل محل والده، وكما يقول المثل الفرنسي "الطفل الذي يكبر يحلب أبقار أبيه".

كما أن الأم رحيمة وراعية لأطفالها وحبها لهم بغير حساب، "قلبي على ولدي وقلب ولدي علي حجر" و"عقل الوالد مع الولد وعقل الولد في الخلد". والمنزل الذي فيه تعدد زوجات تظهر غيرتهن تجاه الأولاد وتجاه الزوج، فالزوجة الأخرى تشمئز من ابن منافستها، ويكون اهتمامها به قليلاً وتتمنى له السوء، وبدوره فالولد لا يظهر أي ثقة ولا احترام لزوجة والده، فالشعور بينهم متبادل "الخالة مرة الأب لا بتحب ولا تنحب"،"مثل الوليد مع خالته".

أما ما يتعلق بجنس الطفل فغالبا ما يحبب أن يكون الطفل الأول ذكراً، وإنجاب طفل عند الولادة الأولى يعد الرغبة الأساس في المجتمع اليمني والثقافة العربية بشكل عام، ففي الثقافة المغربية؛ تقول ليلى المسعودي في بحثها بعنوان (*صورة المرأة من خلال الأمثال المغربية للشمال الغربي*) أن: "*الوظيفة الإنجابية للمرأة مشاد بها على نطاق واسع في الأمثال؛ سواء من خلال الحاجة (وجوبا) للحمل وبالأخص إنجاب طفل ذكر*"[4]، وكذلك في المجتمع اليمني يهتم الآباء في الحصول على مزيد من الفتيان أكثر من الفتيات، وذلك لأسباب عدة: على سبيل المثال، أن الفتيات يجلبن المتاعب والعار في العائلة، والأولاد قادرون على إعالة الأسرة أكثر منهن، فالآباء يعتمدون أساساً على الأولاد للمساعدة في دعم الأسرة، وهم الذين يحملون اسم الأسرة.في حين الفتيات يتزوجن ويحمل أطفالهن اسم أسرة الزوج"ولد ولدك لك وولد بنتك له".وما أن تتزوج الفتاة لا يمكن للوالدين الاعتماد عليها؛ لأنها أصبحت تنتمي إلى نسب مختلف هو نسب الزوج.

4. الصداقة

من حيث الحياة العاطفية تعرف الأمثال قيماً هامة: الحب والصداقة والأمل والفرح، وتشكل الصداقة قيمة اجتماعية هامة، ليس فقط شعور بالمودة المتبادلة، ولكن أيضاً بعملية حسابية دقيقة الفائدة، فهي المنفعة التي يمكن استخلاصها من أي علاقة، وهذا لا يعني أنها أنانية صرفه، فالصديق الحقيقي الذي

يقبل أن يتمتع صديقه بخدماته، لكنه في الوقت نفسه يتوقع المعاملة بالمثل "حك لي واحك لك" ولأنه "من حب نفسه فارق أصحابه"، يجب أن تكون الصداقة الحقيقية دائما مفيدة وصادقة وعفوية ومتبادلة.

وليس هناك من أحد بلا أصدقاء حتى الشخص الشرير لديه أصدقاء "حافظ على الصديق ولو في الحريق" و "اعمر لك في كل وادي دار وفي كل قرية بيت". يجب بذل كل جهد ممكن لتكوين صداقات والاحتفاظ بها؛ لأن الصداقة هشة، ورب كلمة مسيئة أو كذبة تفرق بين الأصدقاء. وبما أن الصداقة قد تكون بين أشخاص من المستوى الاجتماعي نفسه، إذا تمكن أحدهم من تحسين وضعه من خلال مهنته أو فرصة عمل، فإنه يميل إلى نسيان الأخر أو كراهيته "صاحبك عدوك " و "لا تدعي لصاحبك بالسعادة تخسره" و "ما خبازه تحب خبازه". هكذا يتعدد الأصدقاء لكن الشخص الذي يمكن أن تكون أمامه عاريا يكون نادراً "عند الضيق لا أخ ولا صديق".

5. الأخلاق

كل إنسان مقيد من قبل مجموعة من العادات والصفات والعيوب، التي تجعل منه ما يستحق تقدير أقرانه، أو يكون موضع ازدرائهم، فالميزات تشكل القيم الأخلاقية، في حين العيوب هي وصفات سلبية لهذه القيم، وغالبا في الأمثال، تتواجد الصفات والعيوب في شكل ازدواجية اعتراضية، ولا بد من أن نلاحظ أن كثيرا من الأمثال لا تتفق، بل تتناقض، ولو وُضعت جنبا إلى جنب، كمثل قولهم: "الجار للجار ولو جار" وقولهم: "يا جاري انت في حالك وأنا في حالي"، فالأول يدعو إلى التضامن مع الجار في كل حال والثاني يدعو إلى الانصراف عنه.

إن العادة، جيدة كانت أم سيئة، تكون وراثية أم فطرية وفي بعض الأحيان مكتسبة من الطفولة؛ فهي متأصلة دائما "كل شي عاده حتى العبادة" و "من تعود على السم أكله"و "من شب على شي شاب عليه"، وكل العناصر البشرية لديها عادات جيدة متوارثة منذ الولادة أو نتيجة للتربية الأساسية "زوجك على ما تعوديه وابنك على ما تربيه". وإذا كان للكل ميزات، فلا أحد خال من العيوب، والكمال ليس في هذا العالم،

والجميع يحاول أن يخفي عيوبه، ولكن من الصعب إخفاؤها من أقاربه أو تركها "رجعت حليمة لعادتها القديمة" وغالبا ما نكون ضحايا لعيوبنا.

والفرد قد يكون المسؤول عن عاداته الجيدة أو السيئة، ويجب على الجميع الخضوع للمصير "المكتوب ما منه هروب"، فالمبدأ الأساس في قيم المجتمع اليمني هو أن الجميع مسؤول عن أفعاله "من عمله بيده الله بيزيده" و "كل شاة معلقه من عرقوبها"، ولكل طريقته الخاصة في التفكير والعمل: فما هو شر للبعض قد يكون خيراً للآخرين "مصايب قوم عند قوم فوايد". وعيون الناس تشاهد بطرق مختلفة"كلا يناظر الناس بعين طبعه" و "كل عين ولها حلاها". فكل شيء يعتمد على الظروف.

6. السعادة

بغض النظر عن الوضع الاجتماعي، أو العرق، أو الدين، أو الثقافة، فالجميع يبحث عن السعادة، بصفتها قيمة أساساً في الحياة، تلك المشار إليها في الأمثال تارة من خلال مصطلحها الإيجابي "السعادة" (نعمة، خير، راحة) وأخرى عبر المصطلح السلبي "التعاسة" (شر، مصيبة، نقمة). إن السعادة لا علاقة لها بنبل الميلاد أو المهنة التي يقوم بها الفرد، فمكوناتها تختلف من ثقافة إلى أخرى، وكل شخص له نصيبه من السعادة ويمكن أن يكون سعيداً وغير سعيد؛ "الدنيا دواره ساعة مع الكبار وساعة مع الصغار".

فالسعادة بالنسبة إلى الإنسان اليمني ولاسيما في الأمثال، هي في المقام الأول جسدية، "اذي مابش معه عيد، يقول العيد عيد العافية"، وأحيانا تكون السعادة في المعدة الممتلئة "غدا من بيت سيدي، عشا من بيت سيدي، أيش يفعلو بالمطر يا قبايل".

7. الاحترام

واحد من أهم اللوازم في المجتمع هو الاحترام، أو الاحتقار الذي يظهره لأعضائه وفقا لسلوكهم، بالامتثال للقواعد الأخلاقية أو عدمة، فسمعة الفرد، هي تلك التي يمنحها للمجتمع، والحكم لا يتم من خلال المظاهر؛ لأنها في الغالب خداعة، بل يجب أن يكون على الأفعال " المظاهر خداعة" و "إذا غرتك الأصول دلتك الأفاعيل".

إن كل فرد يبحث عن الاعتبار بين أعضاء مجموعته، ويميل إلى تقدير أكثر من الآخرين.والتقدير والاحترام اللذين نتمتع بهما بين أقراننا ليسا سوى لازمة من لوازم قيمنا الإنسانية، وهذه القيم في حد ذاتها مرغوب فيها.

ومع ذلك، يوجه الاحترام للشخص وليس لملكه، ولكن قد يكون العكس، كما هو مبين في هذا المثل "اذي مابش معه قرش ما بيسوا قرش" و "كلب الكبير كبير وكلب الأمير أمير"، ويحق لأي شخص مهما كان وضعه الاجتماعي الاحترام، ومن لا يحترم الآخرين لا يستحق أي اعتبار؛ لان قانون المعاملة بالمثل موجود في هذا المجال، كما هو الحال في المجالات الأخرى للحياة الاجتماعية.

8. السببية

تعد السببية إحدى القوانين الطبيعية الأكثر استعمالاً في الأمثال، فلا يوجد أي حدث من دون سبب "مابش دخان بدون نار". فضلاً عن ذلك، كل حدث يتناسب مع سببه "من زرع قليل حصد قليل"؛ فللحدث الحسن سبب حسن "اذي يشتي آليه يقدم تسعه وتسعين"، وكذلك السبب السيئ، لا يعطي نتائج طيبة "من زرع الحيلة حصد الفقر"، وأحيانا يمكن أن يسبب حدث بسيط نتائج مهمة "يضع سره في أضعف خلقه"، والعكس أيضا صحيح، فالسبب قد يكون أكبر من الناتج، الذي لا يتناسب معه "تمخض الجبل وادى فار".

إن قوانين السببية تشكل المبادئ الأساسية لفن القيادة بين الناس؛ ولذلك يجب على كل فرد تحمل النتائج السلبية لأخطائه وعيوبه، وكما أن مبدأ السببية موجود في الأمثال، فإن الأمثال تتضمن أيضا مبدأ الغائية، وكل شيء يكون مخصصاً لغاية في الطبيعة، فمن يرد الغاية يبحث عن الوسيلة "الغاية تبرر الوسيلة" وكل فرد يتصرف وفقا لوسائله المناسبة.

الخاتمة:

لقد قمنا بدراسة وصفية لأحد أنواع التعبير الخاص من خلال التحليل الموضوعي لبعض الأمثال الشائعة في اليمن، وحاولنا مناقشة بعض القضايا المتعلقة بالحياة، مثل المصير والشخص والعلاقة والأخلاق والاحترام، وما إلى ذلك. وتم جمع الأمثال من عدة مصادر، مثل (فنون الأدب الشعبي في اليمن) عبدالله البردوني 1995، (الأمثال اليمنية) إسماعيل الأكوع 2004، وكذلك من خلال الجمع الشخصي الذي أجري مع عدد من الرواة (العائلة والأصدقاء والطلاب).

الثقافة هي مجموعة من السمات المميزة: الروحية والمادية، والفكرية والعاطفية، التي تميز ملامح مجتمع أو مجموعة اجتماعية، وللوسط الشعبي شواغله وآدابه وفنونه التي يأخذها الخلف عن السلف مشافهة، وبطريقة عفوية خالية من التكلف، خلال المعاملات اليومية وداخل المساكن، وفي الشوارع وفي الأسواق، وعلى أبواب المتاجر وغيرها من مظاهر الحياة اليومية. يعد المثل، شكلاً من أشكال التعبير العالمي في المجتمعات ذات التقليد الشفهي، أحد الخطابات المنتشرة في كل مكان، والحاملة لرسالة شعبية، تسمح برسم أنموذج للمجتمعات التي خرج منها.

ويرتبط المثل بحياتنا اليومية، وهو جزء أساس من معيشتنا، وعبره نلخص تجربتنا، ومن خلاله تصل إلينا تجارب أسلافنا، والتواصل ضروري لبقائه سارياً بين الناس وفي أفواههم؛ ليمكن لهويتنا الحضارية أن تبقى حية وفاعلة ويمكن من ثم أن ننقلها إلى أجيالنا اللاحقة، والحفاظ على صيغة المثل وألفاظه من التغيير، لأن المساس به يخل بمدلوله، ويفقده كثيراً من قيمته الأدبية واللغوية والتاريخية، فالأمثال تؤثر في سلوك الناس، ومنها ما يكون حافزاً للتحسين والإصلاح، ومنه ما يكون فيه حجة وذريعة لتأييد سلوك أو موقف، وفيها ما يدعو لسلوكيات خاطئة مثل الكذب.

فضلاً عن ذلك، يلعب "المثل" دورا مهماً في المجتمع. وتأثيره واضح على سلوك الناس. فهو يلبي متطلبات المبادئ التقليدية، ويعكس عموما وجهة نظر بسيطة، لهذا فالناس تتقبل المثل وتتبناه بسهولة، كما إن المثل يُعنى دائما بالإنسان في أعماق شخصيته، وفي أخلاقه، وفي علاقاته مع زملائه، وانسجامه مع العالم.

ويعرف المجتمع اليمني قيماً أساساً خاصة بالفرد والأسرة والثروة والسلطة والاحترام...الخ، لكن القيمة الأساس هي العيش في وئام مع الطبيعة ومع أقرانه مستسلما لما تمليه عليه السببية والحدث والممكن والزمان والمكان.

مع ذلك، نستطيع القول بأن منظومة القيم الاجتماعية للمجتمع اليمني التي يمكن استخلاصها من خلال تحليل محتوى مجموعة من الأمثال ليست في اتزان مثالي أو ثبات تام، فكل نظام قابل للتغيير بواسطة ديناميته الداخلية، وكذا التأثيرات الخارجية، ووتيرة هذا التغيير تخضع لكل من مرونة النظام نفسه، وتأثير التاريخ، وينطبق الشيء نفسه على منظومة القيم الاجتماعية.

وفي الأخير يمكن القول إن المثل بتحولاته المختلفة في الزمان والمكان ليس أكثر من نتاج ثقافي مرتبط بموقف تاريخي معين وبظروفه ومقوماته الخاصة، ومن المثير للاهتمام إعادة قراءة التراث اليمني؛ لتصحيح بعض الصور الخاطئة، كصورة المرأة في الأمثال والحكايات، من أجل ألا تنتقل مثل هذه القيم السلبية بين الأجيال وتصاغ بطرق مختلفة.

الهوامش والإحالات:

1) F. SUAR, et C. BURIDANT, « *richesse du proverbe* » 1984, 2 Vol, Université de Lille Ⅲ. "Communications présentées à Lille, du 6 au 8 mars 1981, dans le cadre du Colloque de .Parémiologie"تمت الترجمة بواسطة الباحث
2) إسماعيل الاكوع "الأمثال اليمنية" مجلد 1، إصدار وزارة الثقافة والسياحة 2004. صنعاء. ص 10.
3) L. MESSAOUDI, «*Image de la femme à travers des proverbes marocains du nord ouest* »,*Culture orale et variation linguistique au Maroc*, éd. OKAD, Pub. Laboratoire
Langage et Société. 2009. Pp 42- 59.تمت الترجمة بواسطة الباحث
4) L. MESSAOUDI مرجع سابق 2009. Pp.42-59.